

من تاريخ الأدب المصري

أحمد بن يوسف

المعروف بابن الداية

للأستاذ محمد كرد علي

«لاحقة»

ليس ما نشرته «الرسالة» لي في عدد ٢١٥ هو كل ما عرفت من أخبار أحمد بن يوسف الكاتب . فقد ذكر من ترجوا له أن أباه يوسف بن إبراهيم كان من ذوى الرواءات التامة والمصيبات المشهورة ، وأنه كان كاتباً مجيداً يعد من كتاب الطبقة الأولى ، وأنه ولد داية ابن المهدي ، وكاتب إبراهيم بن المهدي ورضيعه وصاحبه ، وأنه صنف كتاباً في أخباره وفي أخبار المتطيين وغير ذلك ، وأنه قدم دمشق سنة ٢٢٥ ، ولعلها كانت سنة هجرته من بغداد إلى مصر . وذكروا أسماء من روى عنهم ورووا عنه ؛ وعن روى

في غيره من الأدبان ، بل إن كل دين عندهم من هذه الوجهة في درجة واحدة ، إلا أن الاسلام تميز عن غيره بكثرة المتقين ؛ باليابان تؤمل بهذا وجود جبهة قوية لها أمام الاشتراكية ، ورابطة ننتية لبناء الوحدة المزمع إنشاؤها .

أما كون الحكومة في السنتين الأوليين لم توفق إلى تلك النظرية — أو أنها لم ترد الاعتراف بها — فذاك بحث آخر ؛ يحتمل أن يكون لزعماء المسلمين يد في حملها على الاعتراف بنظرية نير الدين الاسلامي لترويج تجارتها في تركيا وفي أواسط آسيا . وقد وقفت إلى ذلك وقدرت على مزاجحة الصادرات الأوربية نالت إقبالا كبيرا من البلاد الاسلامية كبلاد العرب والأفغان بإيران . وما دامت اليابان ترى حاجتها في الاسلام للوصول إلى تلك الأغراض فضررها سيكون بليغا على الديانة النصرانية .

إن الاسلام يعقد في مساعدات اليابان له أماني ذهبية ، اليابان بدورها تنتهز هذه الفرصة لاشباع مطامعها السياسية التجارية . وقرىبا يظهر هل تلك الأمة حقيقة راغبة في اعتناق ك الدين ، أو يظهر ما أخفته وراء تلك المجاملات اه .

«المرشد — سورايا»

عنهم من غير المسلمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب وعيسى بن حكم الطبيب

وكان يوسف بن إبراهيم من أصحاب الثروة يجزى على كثيرين في القساطر . ولما حبسه ابن طولون في «بعض داره» وكان اعتقال الرجل في داره يؤيس من خلاصه ، فكادستره أن ينهك لحرف شملة عليه «جاء جماعة من أبناء السر إلى أحمد بن طولون وطلبوا إليه أن يقتلهم إذا كان معترفاً على قتله ، وقالوا إن لهم ثلاثين سنة ما فكروا في ابتياع شيء مما احتاجوا إليه ولا وقفوا يباب غيره . وفي الساعة التي توفي فيها يوسف بن إبراهيم بمث أحمد بن طولون أيضاً بخدم فهججوا الدار وطالبوا يكتبه «مقدين أن يجدوا كتاباً من أحد ممن يبتدأ ، فعملوا مندوقين وقبضوا على أحمد وعلى أخيه ، وصاروا بهما إلى داره ، فأدخلوها إليه وهو جالس وبين يديه رجل من أشراف الطالبين ، فأمر بفتح أحد الصندوقين ، وأدخل خادم يده ، فوقع على دفتر جرباته على الأشراف وغيرهم ، فأخذ الدفتر بيده وتصفحه ، وكان جيد الاستخراج ، فوجد اسم الطالب في الجراية ، فقال له وأحمد يسمع : كانت عليك جراية ليوسف بن إبراهيم . فقال له : نعم أيها الأمير ، دخلت هذه المدينة وأنا مملق ، فأجرى علي في كل سنة مائتي دينار ، أسوة بابن الأرقط والعقيق وغيرها . ثم امتلأت يداي بطول الأمير فاستعفيت منها »

هذا الوالد هو الذي أنجب أحمد بن يوسف . وأنت ترى أن أحمد بن طولون كان يتخوف منه ، لسكاته واتصاله الوثيق بالبيت العباسي وربما وقع في خاطره أنه عين عليه ، في زمن كان فيه ابن طولون يرى إلى ترع يده من الخلفاء وتأسيس ملك في مصر يكون له ولعقبه على عنق الدهر .

ولذا كان ابن طولون حذراً يقظاً وقد اتخذ أساليب مهمة لأخذ الأخبار ، واتقاء عادية كل من طرأ على مصر ، وعنده أن كل غريب يجعل تحت الترقب ، ولا سيما إن كان عراقياً أو يمت إلى السياسة بأدنى سبب .

تتقف أحمد بن يوسف ثقافة أبناء الأعيان في عصره ، فجاء كاتباً شاعراً رياضياً منجماً أو هو كما وصفوه «مجسطى إقليدسي» حسن المجالسة والعشرة تام المروءة كآبيه ، ومار له اتصال دائم بأرباب الدولة ومنهم عظماء في الأدب، والكتابة والفقه والطب

البغدادى واتصله كان بأعظم خليفة ، وكيف لا تفتول شهرة الكاتب المصرى وصلته كانت بيت بعد فى عرف السياسة يومئذ خارجاً على الخلافة ؟ وبغداد فى ذلك العصر يعمل إليها كل جميل وبعد ما يحمل منها جد جميل

إن كتاب « المكافاة » بأسلوبه ورشاقته بلاغته من أبلغ ما كتب كتاب العرب فى القصص ، يشبه أسلوب ابن المقفع فهو من غراره فى السلاسة وعدم الكلفة . وقد نقل فيه شيئاً من القصص عن والده وعن رجال البلاط الطولونى وغيرهم وعن ابن المقفع وقال إنه « مما نقله ابن المقفع عن الفرس وتعاله العرب » روى لى أحد أصدقائى أن حافظ إبراهيم « رحمه الله » استظهر هذا الكتاب فى سنة نشره وقال لى الأستاذ عبد العزيز البشرى إنه قرأه ثلاثين مرة وما ارتوى من ديباجته . لا جرم إن بلاغة أحمد بن يوسف من النوع الذى لو راهنت على أنه ليس فى وسع جهابذة النقد أن يسقطوا لفظه من جملة لربحت الرهن ، وصدقك الأدباء فى قولك بتفرده فى أسلوبه ، وأنه بلا جدال المفرد السليم بين من أنبتهم مصر من الكتاب فى الدهر النابر

وبعد فن عجيب ما فهمناه من حياة أحمد بن يوسف أنه كان يحاذر محمد بن سليمان لما دخل مصر فى سنة ٢٩٢ للقضاء على الدولة الطولونية ، وكان يستدعى « الواحد بعد الواحد من أسباب الطولونية ويستصفي ماله بالوسط وعظيم الإخافة » . وكان الطولونيون يعرفون أن هواه مع بنى العباس بالطبيعة وراقتون حركاته ، وما ندرى وهو الذى جمع سيرة دولتهم ورجالها إن كانوا راضين عما كتب أم غير راضين ؟ لأن حرية القول ظاهرة فى كلامه من كتاب المكافاة ، ولا شك أن سائر ما دونه من تاريخ القوم من هذا النمط . مات أحمد بن يوسف سنة ٣٤٠ و ٣٣٠ وقال ياقوت وأظنها ٣٤٠

وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية فإن الظاهر أن أحمد بن يوسف عُمر طويلاً لأنه يروى عن رجال عمرهم فى أيام أحمد بن طولون ، وهذا هلك فى سنة ٢٧٢ والظاهر أنه كان صاحب مزمارع انتقلت إليه من أبيه ومنها ما كان على مقربة من المحلة الكبرى

والهندسة والفلك لم تتعرض كتب التراجم لهم ، مثل على المتطبب المعروف بالديدان وقال فيه إنه كان « حسن العرفة لكتب أفلاطون ورموزه ومبرزاً فى الطب » وكان على صلة بالمهندسين واستفدنا من كلامه أنه كان لهم فى بغداد موضع يجتمع فيه وجوه العلماء بالهيئة والهندسة فى دار العباس بن سعيد الجوهري ترب المأمون .

ولم نعرف حقيقة الديوان الذى كان يعد من كتابه أو من رؤسائه ، فإن ابن النديم وصفه فى الفهرست بالمهندس المصرى ، وقال إنه فسر كتاب الثمرة ، وكتاب الثمرة من تأليف بطليموس أما سائر كتبه فقد ذكر منها ياقوت فى معجم الأدباء طائفة سالحة ، ومنها سيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه « خوارويه » وسيرة هارون ابن أبى الجيش ، وأخبار غلمان^(١) بنى طولون ، وكتاب أخبار الأطباء ، وكتاب مختصر المنطق ألفه للوزير العالم الكاتب الف على بن عيسى ، وكتاب ترجمته ، وكتاب أخبار النجسين ، وكتاب أخبار إبراهيم بن المهدي ، وكتاب الطيخ . وكل هذه الأسفار فقدت ، ولولا أن عثر له فى الأعوام الأخيرة على كتاب « المكافاة » بل على جزء منه لطفى الزمن على فضل أحمد ونبوغه فى الكتابة أيضاً . وكلم من رجل سدل على صيته القناع بعد قليل من رحيله لفقد ما كتبه وقلة أنصاره ، ورب رجل تضاعفت شهرته فى مماته أكثر من حياته لاغفال حساده أمره بعد موته ولكثرة من أشادوا بعلومه وأدبه وإبداعه .

وإذا كتب لأحمد بن يوسف أن تدرس حياته وأدبه دراسة أدبية ، وتنبأ لبعض التفرغين من الباحثين أن يجمعوا طائفة من كلامه ، وهو قليل فى الطبوعات التى بين الأيدي ، ولا يعد أن يعثر له على أشياء فى بعض المخطوطات — يسهل على نقاد الأدب أن يسلكوه مع سميته أحمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون فى سلك واحد ، وربما ثبت لهم أن أحمد بن يوسف المصرى أوسع علماً من سميته البغدادى بما أصابه من الحظ العظيم من الثقافة التى تم عليها أسماء مصنفاته فقط . وكيف لا تتأق شهرة الكاتب

(١) فى اللسان : يقال فلان غلام الناس وإن كان كهلاً كقولك فلان فتى السكر وإن كان شيخاً ، والعرب يقولون للكهل غلام نجيب وهو فاش فى كلامهم . ويقصد أحمد بن يوسف بغلمان بنى طولون رجالهم والقائمون بدولتهم